ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى :
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ(1) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾ [النحل]

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)﴾ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذى أحلَّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أنْ أموت .

وفى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ (٧)﴾ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾

﴿وَعَلَيْهَا (٢٢)﴾ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ [المؤمنون] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام :

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [ القاموس القويم ١/٤١٥ ] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان، وحدثنا عن بعض نعمه التى امتنَّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك؛ لأنه قد يسأل سائل: وكيف تكون هذه الفُلْك أى: تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد، أم تنبت كالزرع؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وُجدت بالوحى فى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها، كما قال سبحانه: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] وهى الحبال، كانوا يربطون بها ألواح الخشب، ويضمون بعضها إلى بعض، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض.

لكن، مهما أُحكمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض، فلا بُدَّ أن يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء، فكيف نتفادى ذلك فى صناعة الفُلْك خاصة فى مراحلها البدائية؟ يقولون: لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً، ولا يتسرب منها الماء.

ومن عجائب القرآن ومعجزاته فى مسألة الفُلْك قوله تعالى:

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى: كالجبال العالية. وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعي ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحي إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ..(٢٣) ﴾ [المؤمنون]

لما تكلّم الحق سبحانه عما فى الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فذكر منهج الله الذى أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعنى : ما دام كل شيء

من أجلك يعمل لك ويُؤدِّى مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدى مهمتك التى خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال فى الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق فى حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدى إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التى سكت عنها فأنت حُرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتى بقبيح فى المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين فى مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت فى هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدى مهمتها .

كذلك - ولله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحِدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك فى الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التى خلقنا الله لها وهى خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذى وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت في المجتمع عورة ظاهرة في أي ناحية من نواحي الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن في الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْي في مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويُمثّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شيء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها في الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هي ثمرة العنب الحلوة التي تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخَّل في هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (٢٣) ﴾ [المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فالنساء في مقابل القوم أي : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر[1] :

وَمَا أدْرِى وسَوْفَ أخَالُ أدْرِى      أقَوْمٌ آلُ حِصنٍ[2] أمْ نِساءُ

لكنْ هل أُرسِل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أُرسل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلِّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال مَنُوط بهم القيام بمهام الأمور فى عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة فى ﴿قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتى بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإِلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول ملَكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبى ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٣ ق. هـ . [ الأعلام للزركلى ٣/٥٢ ] .

(٢) يريد : حِصْن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [ لسان العرب – مادة : حصن ] .

أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه فى أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه فى البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ (٢٣)﴾[المؤمنون] أننا لم نأتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتَعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجيء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ..(٢٣)﴾[المؤمنون] ( يا قوم ) استمالة وتحنين لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ..(٢٣)﴾[المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضى تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾ [هود] أى : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ الطائع ، ورب العاصى .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم الجميع ، لا فرْقَ بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحده المستحق للطاعة وللعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضى أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيِّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخْزَ على عِرْضِك واستَحِ ، فليس هكذا يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أنْ كنتَ صغيراً تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد كان ينبغي عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - ولله المثل الأعلى - فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتمرد عليه سبحانه في الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمون عليك في التكليف بالأمر والنهى ، لأنك عبده وصنعته ، وأنك حين تُؤدِّى ما عليك تجاه الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء ، إنما تعود منفعتها عليك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ؛ لأنها تعود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهى على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هى تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرِّم مثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء ؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ويقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه ؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً ؟ وهل زاد في مُلْكه شيء بطاعة مَنْ أطاع ؟ هل زاد في مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم . إذن : فربُّكَ - عز وجل - لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

لذلك يقول في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر ، وذلك أنِّي جواد واجد ماجد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أن أقول له : كن فيكون »(١)

إذن : حين تطيعني فالخير لك ; لأنك ضمنت بهذه الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبي ذر رضي الله عنه ، واللفظ للترمذي ، وقال : « هذا حديث حسن ».

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تفوت نعيمها بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالحاجة والفقر ، أما فى الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] فكان عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدنى فى شىء ، أو أن معصيتك ستضرنى بشىء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ (٢٣)﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخهم وهو لم يَزَلْ فى مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أنْ تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقَهْره وتحميك من أسباب بَطْشه وانتقامه ، فلست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهى .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤)﴾ [البقرة] ويقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ..(٢٤)﴾ [البقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتقى الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتقى الله بالمنهج فقد اتقيْتَ النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الملأ : من الملء يعنى : الشيء الذى يملأ الشيء ، فالملأ يعنى الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتهم ، ومن ذلك قولهم : فلان ملءُ العين ، أو ملْءُ السمع والبصر ، ويقولون للرجل إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً : فلان قَيْد العيون يعنى : حين تراه لا تصرف بصرك إلى غيره من شدَّة حسنه كأنه قيَّد بصرك نحوه . أما فى المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير موجود .

إذن : الملأ : هم الذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصَّبوا ضده وواجهوه ؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد فى الكون وما استشرى فيه من شر ، فالحق - تبارك وتعالى - يُنزل منهجاً على لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلِّغوا منهج رسولهم من بعده ، لكن تأتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى خروجهم عن منهج ربهم على عِدَّة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ومنهم مَنْ يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعةَ له ولا زاجر ، وهذا نسميه بلغتنا ( فاقد ) يعنى : لم يَعُدْ له زاجر من شرع ولا من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء الخارجين عن منهج الحق عليه أنْ يتصدَّى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم ولا يحترمهم ، وإلا لو ظَلَّ المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من احترام الناس وتقديرهم ، ولو ظلَّ على مكانته فى المجتمع لتمادى فى غَيِّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشرى بذلك الشر فى المجتمع ، ويعُمّ الفساد وتشيع الفوضى .

ألاَ ترى الشرع الحكيم حين جعل الدية فى القتل على العاقلة يعنى : عائلة القاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكى يأخذوا على يد ولدهم إنِ انحرف أو بدَتْ عنده بوادر الاعتداء ؛ لأنهم جميعاً سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خُصَّ الملأ بالذات ؛ لأنهم هم المنتفعون بالشر والفساد فى المجتمع ، ومن مصلحتهم أنْ يستمر هذا الوضع لتبقى لهم سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول مَنْ يقابلون الرسالات بالجحود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

فهؤلاء الذين يُسمُّونهم أراذل هم المستضعفون والفقراء والمطحونون والمهمومون بأمور الخَلْق والدين والقيم ، فما إنْ تسمع آذانهم عن رسالة إلا تلهَّفوا عليها وارتموا فى أحضانها لأنها جاءت لتنقذهم ؛ لذلك يكونون أول مَنْ يؤمن . وإنْ جاء المنهج لإنصاف

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً لينزع من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعاليهم ، فلا بُدَّ أن يواجهوه ويعاندوه .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [المؤمنون] كفروا : يعني جحدوا وجود الله ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] فأول شيء صدَّهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون ؟ وقد شرح هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء]

ولا بُدَّ في الرسول أن يكون من جنس المرسل إليهم ؛ ليصح أن يكون لهم أسوة ، فيقلدوه ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول ملكاً فكيف تتحقق فيه القدوة ؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه ملَكٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مُقوِّمات المعصية ؟

ولنفرض أن الله نزَّل عليكم ملَكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقَّوْن عنه ؟ لا بُدَّ - إذن - أن يأتيكم في صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقِّي عنه ، وهكذا نعود في نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحُمْق أن نقول بأن يكون الرسول ملَكاً .

أما قولهم : ﴿ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون في هذه المثلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحي ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « يؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم ، وأُعْطَى من الله فأقول : أنا لست كأحدكم » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۝٦﴾ [فصلت] ومن هنا كانت الأفضلية فى أنه بشر يُوحَى إليه ، وما بشريته إلا للإيناس والإلْف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] يتفضّل : يعنى ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] يعنى : لو شاء أنْ يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ۝٢٤﴾ [المؤمنون] أى : رسلاً ، وقد ردَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء]

ثم يقولون : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] المراد بهذا : يعنى أن يأتى مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأتِ مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال فى الرأى ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذى نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء فى ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

(١) قال ابن عباس : أى على دين . وفى رده على سؤالات نافع بن الأزرق قال : على ملة غير الملة التى تدعونا إليها . [ أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٧/٣٧٢ ، وعزا الأول لابن جرير الطبرى ، والثانى للطستى ] .

الأجيال المختلفة تجد كل جيل له رأيه وتطلعاته ورغباته التى ربما اختلف فيها الابن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأى مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التى يرغبها ، الملابس التى يحبها ، وإنْ خالفتْ رأى أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إنْ لزم الأمر ، وهذا موجود فى كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا فى مثل هذه الأمور : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأىٌ مستقل فى أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يُلبِّى رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يُقلِّل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيُقيِّد هذه الرغبات والشهوات ويقضى على هذه الانحرافات ؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلتَ الزمام من الآباء والأمهات ، فالشاب يسير على هواه فى أمور انحرافية ، فإن وجَّهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصرْن أيضاً يتمردْنَ على هذه القيم ولا يهتممن بها .

فقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون] وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف] هم كاذبون أيضاً فى هذه المقولة ؛ لأنهم لو صَدَقوا لقلَّدوهم فى كل شىء فيما لهم وما عليهم فى أمور الدنيا وفى أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هذه القضية فى مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]

لأن هذا يريحهم من مشقة التكاليف، وإنْ كانت العبادة - طاعة عابد لمعبود في أمره ونهيه - فما أسهل عبادة الأصنام ؟ لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج، وليس معها تكاليف؛ فبماذا تُمي، أمرك الصنم ؟ وعن أيِّ شيء نهاك ؟ وماذا أعدَّ من جزاء لمن أطاعه ؟ وماذا أعدَّ من عقاب لمن عصاه ؟ إذن: معبود بلا منهج وبلا تكاليف، وهذا دليل كذبهم في عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم.

ألم يقولوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (٣)﴾ [الزمر] فهذا حُمْق وسَفه وجهل؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج، وليس لهم تكاليف، والعبادة طاعة عابد لمعبود ؟!

إذن: ما هو إلا خواء وإفلاس عقديّ؛ لذلك يردُّ الحق - تبارك وتعالى - عليهم فيقول سبحانه: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

وفي موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عنهم: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] وهذه أبلغ من سابقتها، لأنهم يُصعِّدون كفرهم ويُصرُّون عليه، فقولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق، ويخالفون الآباء.

لكن هذا: ﴿حَسْبُنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعني: كافينا، ولن نغيره ولن نحيد عنه؛ لذلك يأتي تذييل كل آية بما يناسبها؛ ففي الأولى قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا (١٧٠)﴾ [البقرة] وفي الأخرى قال ردّاً عليهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا.. (١٠٤)﴾ [المائدة]

فذكر العقل في الأولى ؛ لأن الإنسان يأتمر فيه بنفسه ، وذكر في الأخرى العلم ؛ لأن الإنسان في العلم يأتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم - إذن - أوسع من العقل ؛ لذلك ذكره مع قولهم ﴿حَسْبُنَا..(١٠٤)﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلحظ عليهم في قولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا..(٢٤)﴾ [المؤمنون] أن الغفلة قد استحكمت فيهم ؛ لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبي ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾

﴿إِنْ هُوَ..(٢٥)﴾ [المؤمنون] يعني : ما هو و ﴿جِنَّةٌ﴾ : يعني جنون ، وهو ستر العقل الذي يسيطر على حركة الإنسان في الحياة فيسير حسب تقنيناتها ( افعل كذا ) و ( لا تفعل كذا ) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛ لذلك من عدالة الله في خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدي على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإنْ كان هذا حال المجنون في حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذي يسير وَفْق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسل فى كل زمان ومكان ، وقد اتُّهم بها رسول الله ﷺ ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة فى قوله : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمأنوا إليه ، وسمَّوْه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خُلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جِنَّة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾ [المؤمنون] أى : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مُهتمين به ، أو دَعُوه فإنْ كان على حق ونصره الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإنْ كانت الأخرى فها نحن مُعرِضون عنه من بداية الأمر .

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾

بعد أنْ كذَّبه قومه دعا الله أن ينصره ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾ [المؤمنون] يعنى : انصرنى بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضنى بتكذيبهم نصراً ، يعنى : أبْدِلنى من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فأخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح ـ عليه السلام ـ فى النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هى السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] دليل على أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأصحِّح لك إنْ أخطأت فى وضع شىء فى غير موضعه ، إذن : أمَرْتُ وأعَنْتُ وتابعتُ . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

(١) التنور : مكان تفجُّر الماء ، والكانون الذى يُخبز فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . [ القاموس القويم ١/١٠٢ ] .